التشكيل المكاني ودوره في التكوين الدلالي عند الجواهري

الملخص :

مما لا شك فيه أن المكان في الدراسات الأدبية الحديثة لم يَعد تلك الخلفية التي تجري ضمن إطارها أحداث النص فقط، أو مجرد انعكاس لشخصية الأديب نفسه، بل تعدى ذلك ليصبح عنصراً شكلياً وتشكيلياً ضمن عناصر تكوين النص أو العمل الأدبي بشكل عام، وعلى هذا الأساس أخذ يمثل محوراً أساسياً من محاور اهتمام نظرية الأدب، فضلاً عن أن –المكان– لا زال يحتل مكانة مهمة في تكوين هوية الكيان الاجتماعي ورسم مرتكزاته الثقافية .

وعلى هذا الأساس أصبح المكان في النص الشعري عند الجواهري قد اكتسب أبعاداً متعددة الدلالات ليس لأنه مكاناً محدداً بذاته وإنما بما احتوى من حمولات معنوية كبيرة وليدة طبيعة الأحداث التي مرت بذلك المكان وجعلت منه محوراً تدور حوله مشاعر الآخرين سلباً أم إيجابا، وانعكاس ذلك في صيرورة الوعي الجماعي نحو أهمية المكان إذا ما تعرض لعدوان أو اغتصاب، وبذلك اكتسب قيمته الخاصة التي تؤثر على مجمل القيم والمفاهيم الأخلاقية والجمالية المحركة للشعوب .

المقدمة :

تجسد المكان في شعر الجواهري ضمن بعدين أساسيين اتخذ منهما حركتهِ داخل النص، هما البعد السيميائي الذي ينطوي على الإيحاء برمزية المكان وما يعكسه من دلالات، والبعد الواقعي الذي يظهر المكان فيه كخلفية تُنجَز ضمن حيزة الأحداث، وفي كلا البعدين يتأكد العمق الدلالي للمكان نفسه في وجدان المتلقي الذي ينجذب بشكل صريح نحو هذا المكان ((فكأن القصيدة بغزارتها وخصوبتها توقظ أعماقاً جديدة داخلنا. للتأكد من الوظيفة السايكولوجية للقصيدة علينا تتبع المنظورين للتحليل الظاهراتي في اتجاههما نحو تدفقات الذهن، ونحو أعماق الروح))[1]، ومن ثَمَّ فإن طبيعة العلاقة القائمة بين الإنسان والمكان ترتكز على قانون الفعل وردة الفعل، إذ بقدر ما يؤثر المكان ويحفر في الإنسان خصائصه وملامحه، فإنه بالقدر نفسه نجد الإنسان يتجسد في المكان وفعالياته المستمرة، وبهذا يتفاعل الاتجاهان في جدلية مستمرة قوامها الاستمرارية بين المكان وساكنه [2].

ومن هذا المنطلق نلحظ أهمية التشكيل المكاني للتكوين الدلالي الذي يتجسد بمدى كونه بؤرة النص الشعري عند الجواهري، فنجده أحياناً مكاناً مصدراً لكل قيم المثل والبطولة، وحتى الجمال، وفي أحيانٍ أخرى مكان جاذب لكل ما يمكن أن يُعبر عنه بعوامل الخيبة والفشل واليأس. هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد بعض الأمكنة مألوفة محبوبة وأخرى معادية بعيدة عن الأنس والاستئناس وهذا ما نتلمس حضوره في الأماكن التي يقصد منها الشاعر ماديتها المنظورة المرئية بشكل مباشر من قبل الشاعر فيكون تأثيرها فيه من الناحية الجمالية البحتة البعيدة ما تعطيه من دلالات رمزية خاصة متنوعة، ومن هنا سوف نتلمس ملامح هذه الأبعاد للمكان في شعر الجواهري بشكل واضح .

تعد ثنائية التأثر التأثير العماد الأساس في كل عمل إبداعي وعلى مختلف أصعدة الحياة ، فعبر هذه الثنائية تتجسد القيم الفنية كذلك فهي لا تتحدد بفرد أو أمة فقط، بل تتجاوز ذلك إلى التأثر بمنظومة البيئة ككل، كتأثير الإقليم العام على

السيكولوجيا الاجتماعية [3] سواء كان على الفرد أو على الأمة بكاملها . إذ ((لا يتحدد بمضمون ملفوظاته حسب، بل بقصده... ولذلك يظهر قصد الشاعر أو المؤلف بوصفه أساساً طبيعياً لشرح معنى النص الأدبي))[4].

1 – المكان المُصدِّر :

يعد مثل هذا المكان عند الجواهري محور حركية النص الشعري وبه تتركز اتجاهات الأحداث داخل النص لما له من دور مهم في بلورة شتات المشاعر والأحاسيس وتوجهها بشكل مباشر نحو بؤرة الحدث التي تنبع من هذا المكان، وكأنه هذا التصدير للمكان يحمل بين طياته جذب لمشاعر الآخرين نحوه، وتوجيهها من ثُمَّ نحو الآخر المعتدي الذي يسعى إلى السيطرة على المساحة الفيزيقية الجغرافية ومحاولة ردع تلك المطامع، لأن الإنسان بطبعه ((يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته، ومن ثَمَّ يأخذ البحث عن الكيان والهوية شكل الفعل على المكان لتحويله إلى مرآة ترى فيها (الأنا) صورتها)) [5].

ونلحظ ذلك على سبيل المثال في قصيدة (يا دارة المجد) التي يفتتحها بقوله[6]:

يا دارة المجد ودار السلامْ بغداد يا عقداً فريد النظامْ
يا أم نهرين استفاضا دماً ونعمة من عهد سام وحام
من عهد سنحاريب إذ نينوى يتوج الحكمة منها النظام
وعهد حمو‌راب إذ بابل يكون بالأحكام منها احتكام
شعارها الشمس وعُنفوانها سنابل القمح وعدلٌ يُقام
ويرجها يحضن كل اللُّغى وسحرها يجذب كل الأنام

النص يؤسس لمنادى مكاني اعتمد الشاعر في تحديد أبعاده الجغرافية على قيم اعتبارية معنوية تكونت على وفقها دلالة المنادى الحقيقي (العراق)، ففي قُبال مجموعة الصفات المعروضة للمنادى (يا دارة المجد، دار السلام) يصرح الشاعر باسم المنادى (بغداد) ليتسع بعد ذلك في رسم لوحات من هذا البلد الحبيب العراق بما احتوى من حضارات كبيرة مرت به علمت البشرية صنوف المعرفة، وقد توسل الشاعر من مطلع

قصيدته بل حتى عنوانها بأداة النداء (يا) التي تستعمل لمنادى البعيد دلالة على بعد الشاعر واقعياً عن أرض وطنه وحنينه إلى كل هذه الصفات التي ذكرها، والملاحظ أن هذا المكان الذي أكد الشاعر على ذكره بكل هذه الصفات هو (مكان مصدِّر) لمنابع الخير والمعرفة إلى غيره من بلدان العالم الأخرى، فهو يصدر (المجد، السلام، الحكمة، القانون، القيم الجمالية)، وهو ما حاول الشاعر أن يؤكده في لوحة شعرية أبعادها كل هذه الخصال مستنداً في ذلك على البعد الحضاري العميق لهذا البلد .

ومن الأمثلة الأخرى على مثل هذا النوع من المكان قوله من قصيدة (فلسطين) التي فيها حاول الشاعر أن يستنهض همم الغيارى من أبناء الأمة ليهبوا لنجدة هذا الجزء من الأمة ، كما في قوله [7]:

دلالاً في ميادين الجهاد وتيهاً بالجراحِ وبالضِّمادِ
ورشفاً بالثغور من المواضي وأخذاً بالعناق من الجهاد
وعَبَّاً من نمير الخلدِ يجري لمُنزفَةٍ دماؤهمَ صوادي
وتوطيناً على جمر المنايا وإخلاداً إلى حَرِّ الجِلاد
وإقداماً وإن سرت السواري بما يشجي وإن غدت الغوادي
وبذلاً للنفيس من الضحايا فأنفَسُ منهم شرفُ البلادِ

النص منذ عتبته ينطلق من تحديد مكاني هو (فلسطين) حاثاً أبناء الأمة على بذل الغالي والنفيس من أجل استنقاذ هذا الوطن العزيز من أيدي غاصبيه، فالنص يرتكز منذ مطلعه على الروح الثورية التي تتخلق من اسم (فلسطين) وبهذا نجد أن لفظة (فلسطين) بما هي كبلد مظلوم مغتصب تحيل في اللاوعي العربي على الثورة بوجه الظلم أيّاً كان زمانه ومكانه فأصبحت أشبه بالمعادل الموضوعي لكل بلد يتعرض لنكبة الاحتلال وهذه النكبة تحتم بالضرورة (تصدير) نوع من الوعي الثوري والكفاح المسلح ضدها، وهو ما نتلمسه بما تحيل عليه لفظة (فلسطين) من هذه المعاني، فحركة الصدام الناشئة من الفعل (الاحتلال) وبكل ما يحمل من قسوة وظلم وثقافة يحاول تطبيقها في هذا البلد، وردت الفعل (المقاومة) التي تسعى إلى حماية هذا الجزء

من الوطن العربي بهويته وثقافته وتبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس، كل ذلك دعانا إلى معرفة (الأنا) الرافضة للظلم الكامنة في نفوسنا وهذا لا يتأتى من المعرفة الحقيقية بأهمية الانتماء إلى المكان والدفاع عنه إن تعرض لما يهدده من نوازع الشر الواردة عليه، إذ ((لا يمكن أن نعي ثقافتنا إلاّ وعياً غامضاً، إذا لم نجابه أفراداً ينمون إلى ثقافات أخرى))[8]، وهو ما يخلق هذا الصدام وما يولده من رفضٍ لما هو خارج منظومة القيم المتعارف عليها عند العربي المسلم، وبخاصة فيما يتعلق بمقدساته كالأرض.

وبهذا يصبح المكان بما هو أليف ومحبوب (مصدِّر) لكل قيم الجمال التي يحاول باقي الأفراد الإفادة منها في رسم توجهاتهم تجاهه وبخاصة قيم الثورة ضد من يحاول النيل منه .

2 – المكان الجاذب :

وهو ما يمكن أن يكون بؤرة لخيبة الأمل واليأس وذلك لوجود مجموعة من العوامل التي تساعد على النكوص هذا، مستوطنة في هذا المكان محاولة التغلغل فيه وبسط نفوذها لقوى الشر والجهل والاستغلال، ونتيجة هذا التعمق الكبير لقوى الشر في هذا المكان يجعل المكان هو الآخر متشبعاً بهذا الظلم وجاذب لكل عناصر الخيبة واليأس وطرد كل بوادر الأمل بُعدٍ مشرق، وهذا ينعكس بشكل أو بآخر على طبيعة السلوك الإنساني بسبب العنف الذي يمارسه المكان على الإنسان بحيث يمكن التمييز بين الشخصيات المختلفة بحسب طبيعة المكان الذي ينتمي إليه، ولذلك فكثيراً ((ما تعرف بيئة الإنسان من سلوكياته ومزاجه))[9]، سلباً أم إيجاباً.

وهذا ما يمكن أن نلحظه على سبيل المثال في (المقصورة) التي يستعرض فيها الشاعر جملة الصفات الجاذبة لليأس والخيبة من أوضاع العراق ذلك الوقت، فنراه يقول [10]:

لشرِّ النهايات هذا (المطافُ) وكلُّ مَطافٍ إلى منتهى
متى ترعوي أمَّةٌ بالعراق تساق إلى حتفها بالعصا

تذرّى على الضيم ذرو الهشيم	ويَعرُقها الذُّلُّ عَرْق اللِّحا
وتنزو بها شهوةُ المشتهين	كما دحرجت كرة ترتمى
يجدُّ بغيضٌ بها عديدَهُ	إذا قيل عهد بغيضٍ مضى
وتسمن منها عِجافٌ مشتْ	إلى الأجنبي تجرُّ الخُصَّى
تراودها عِزَّها كالقرومِ	هجاتٌ عليها غريب نزا
عجبت وقد أسلمت نفسها	لعرك الخطوبِ وعصر الشَّقا
وقرَّ على الذِّلِّ خيشومها	كما خطم الصعب جذب البُرى
وأغفت فلم أدرِ عن حيرةٍ	بها: كيف ايقاظها أو متى
ولم أدرِ من طيب إغفائها	على الذَّلِّ، أي خيالٍ ترى
.....	.....
متى تستفيقُ وفحمُ الدجى	عليها مشتْ فيه نار الضحى

هذا الجزء من قصيدة (المقصورة) يعكس حالة الألم واللوعة التي يعيشها الشاعر بسبب ما يراه من أوضاع مترديه في العراق من دون أن يحاول الشعب الوقوف الحقيقي بوجه ذلك التردي الاقتصادي والتغرد بالسلطة من قبل أفراد قلائل ومع ذلك تجد الشاعر أن لا حراك يمكن أن يرتجى من الجماهير التي ارتضت لنفسها هذا المصير المزري. فنلحظ عبر رسم الشاعر لملامح الصورة القاتمة لواقع هذا المكان (العراق) الذي يقف على قيم دلالية محددة وخاصة ((كما يفصح عن عقلية الهيئة الاجتماعية وطرائق تفكيرها. ومن خلالها أيضاً يمكن الغوص في طبقات المجتمع ورصد وعيها الطبقي))[11]. وبهذا تتوجه قوى ضاغطة أخرى ضد هذا المكان الذي أصبح في رأي الشاعر (جاذب) لعوامل اليأس لسبب القوى المسيطرة عليها وهو في الحال نفسه قوة طاردة لمواطن الأمل التي يمكن أن تنبثق عنه والسبب في ذلك سطوة القوة المسيطرة عليه وفي الحالتين يتم ((إخضاع المكان لفعل الشخصيات))[12] بمستوياته المختلفة والمتباينة .

اعتنى الجواهري بالمكان عناية خاصة بحيث أصبح يمثل لديه ملحماً اسلوبياً مهيمناً في كثير من قصائده على المستوى التركيبي والآخر الدلالي، بحيث راحت تتشكل عبره فضاءات تجاربه الرومانسية ورؤاها المغلفة بطابعه الذاتي بحيث صار المكان لديه بؤرة تستقطب كل لواعجه وأحاسيسه ضمن مديات الغربة والحنين تارة والانجذاب والتشوق تارة أخرى، وهذا يستتبع من دون شك انفتاح المكان عنده على فضاءات متنامية أو انغلاق تتلاشى معه تلك الفضاءات بالتساوق مع العنصر الزماني المحفز لفاعلية النص، ذلك أن المكان دون سواه هو القادر على إثارة الاحساس بالزمن [13].

ومن هذا المنطلق نلحظ في المنجز الشعري للجواهري تحديداً مكانياً خاصاً ولاسيما تلك القصائد التي احتواها ديوانه والتي رسمت طبيعة المكان في شعره أياً كانت طبيعة هذا المكان، إذ تمثلت هذه الطبيعة وجمالها في اتجاهين رئيسين تشكّل عبرهما المكان الموصوف، اتسم أحدهما بالألفة والآخر بالموحش وهذا التوصيف المكاني هو الناشيء عن ثيمة الغربة والحنين، والآخر التشوق والانجذاب، هذا من جانب ومن جانب آخر أن ذلك الانفتاح في المكان يشي بتداعيات وجدانية تخلقها فضاءات النص وقد يكون العكس بحيث يولد انغلاق المكان إلى انحباس تلك العواطف والأحاسيس ضمن ذلك الحيز المكاني المحدد عبر الرؤيا الخاصة للشاعر للمكان ووصفه من خلال أفق غير محدد ((ضمن لازمنية العبارة وهذا ما يلجأ إليه الشاعر حين يكون قريباً من عملية الابداع الشعري))[14].

3 – المكان الأليف :

تتبلور ضمن هذا الحيز المكاني مجموعة من الأحاسيس والأفكار تتجسد عبر صيغ لسانية وبنى أسلوبية تعكس حالة الانجذاب نحو هذا المكان بحيث يصبح مثل هذا الحيز مكاناً أليفاً يعشقه الشاعر أو غيره، ونتيجة لذلك تخضع العلاقات الإنسانية لإحداثيات المكان ويلجأ الأديب إلى اللغة لإضفاء إحداثيات مكانية على المنظومات

الذهنية لخلق مجال توظيفي بين عناصر المكان وأفكار المبدع المجردة وصولاً إلى إفهام المتلقي.

والمتتبع لشعر الجواهري الذي اختص بوصف المكان ومظاهره الجميلة وبخاصة طبيعته الخلابة سيستجلي حقيقة الألفة الحاصلة بين المكان والشاعر، إذ جاءت جملة من قصائد الجواهري في معظمها نصاً مكانياً خالصاً ليس لأن المكان فيها يشكل البؤرة الدلالية التي تشع منها مسارات القصيدة فحسب، بل لأن البنية اللغوية والمنطوق اللساني فيها يتشكل من مفردات ذلك المكان والاشارات الدالة عليه، وهو ما نلحظه على سبيل المثال في قصيدته (على كرند) التي تمتلئ بالوصف الأخّاذ بجمال هذا المصيف الذي طالعه الجواهري وجمال طبيعته.

إذ تتشكل القصيدة من ثلاثة مقاطع ترتسم فيها صور جمال الطبيعة التي أسرت لُبَّ الشاعر فراح يصفها بلغة ملؤها الأريحية ضمن أسلوب تصويري يعكس مدى انجذاب الشاعر نحو هذه المناظر الطبيعية.

القصيدة تسير في منحى تقابلي تضع الشاعر في جانب والآخر المخاطب (خليليَّ) في جانب آخر، وعبر هذا التقابل تشكل البنية التركيبية للنص [15]:

خليليَّ أحسنُ ما شاقني ... بفارس هذا الجمال الطبيعي
إلى الآن تجري متون الجبال ... علينا بمثل مذاب الدموعِ
هلمّا معي نحو هذي الرياض ... نجددْ عهوداً بفصل الربيع
فقد أضحت الأرض مخضرة ... تضاحك عن شمل حسن جميعِ
ومهلاً فظلمٌ لهذا الجمال ... نمر عليه بلحظٍ سريعِ

منذ مطلع القصيدة يتحدد المكان (فارس) ببنية وصفية وإن شابتها بعض خاصية النعت التقليدية عبر تشكيل صور مرادفة لصور الطبيعة (تجري متون الجبال ـ مذاب الدموع)، (جيوش الغمام)[16]، (ضرع الغمام)[17]. وكذلك نهضت القصيدة على مجموعة من الصيغ التعبيرية المتنوعة العناصر كان من نتائجها وضع المكان وسط حركة انزياح تركيبية ودلالية.

إذ يعمل التشخيص ضمن حيز التصوير على اضفاء حركية في الأداء الأسلوبي في النص، إذ يعمد الجواهري إلى وضع تقابلات بنائية تتجسد فيها آلية التشخيص كما في (تجري متون الجبال ـ مذاب الدموع، نجدد عهوداً بفصل الربيع، الأرض تضاحك، جيوش الغمام)، ضرع الغمام، كما في قوله [18]:

خليليَّ إنَّ جيوش الغمام عرفن لفارس حسن الصنيع
ألم تريا كيف ضرع الغمام تُرَّفُ لهذا النبات الرضيع ؟

إذ أعطت آلية التشخيص وعبر الاستعارة المتشكلة فيها حيوية لحركة النص الشعري، كل هذه الصور عكست طبيعة المكان الأليف عند الشاعر ومدى حبه له وهذا ظاهر في قوله [19]:

خليليَّ ما غيّرت فارسٌ محل البصير بكم والسميع
ولو شئت حملت برقية تنزَّف لكم من رجيف الضلوعِ

ومع نهاية النص حاول الجواهري أن يجعل النص مفتوحاً على بداية أوسع لما للمكان (فارس) وتسلطه الجمالي على (البصير، السميع)، كذلك إن الدال المكاني (فارس) في خاتمة القصيدة صار متناغماً مع المطلع الاستهلالي المتضمن الدال المكاني (فارس) بجمال طبيعتها الآخّاد الذي استقر ضمن حيز مكاني آخر وهو (رجيف الضلوع) للدلالة على ألفة طبيعته وتشوّق الشاعر إليه.

ومن النصوص الأخرى التي ارتسمت فيها ألفة المكان عند الجواهري قصيدته (البادية في إيران)، إذ أن القصيدة تتألف من ثلاثة مقاطع سعى الشاعر فيها بشحنها بدوالٍ تتجسد فيها معاني الجمال الطبيعي، وسنكتفي بذكر المقطع الأول منها لنرى كيف وظّف الشاعر أحاسيسه لرسم صورة المناظر الطبيعية في هذا البلد (إيران) وكيف أصبح بجماله مكاناً أليفاً لديه فنراه يقول [20]:

بهجة القلب جلاء البصر هذه الأرياف غِبّ المطر
يا أصيلاً هاجت الذكرى به نسمةً أنستْ نسيم السحرِ

أنـــت هيّجـــت شـــعوري طربـــاً ... أنـــا لـــو لـــم تحـــل لـــي لـــم أشـــعرِ
لطفـــك اللهـــم مـــا أعظمـــه ... أفهـــذا كلُّـــه للبشـــرِ
أبســـاطُ الـــورد ممـــدودٌ علـــى ... هـــذه الأقطـــار مَـــدَّ البصـــر
وبأنفـــاسٍ حـــرارٌ خبثـــتْ ... تتلاشـــى نفحـــاتُ الزهـــرِ
يـــا خليلـــيَّ أجـــيلا نظـــراً ... تريـــا الآفـــاق كحـــل النظـــر
تريـــا (بقعـــةً) مـــن بعـــد العـــرا ... تكتســـي نـــور بســـاطٍ أخضـــرِ
عميـــتْ عينـــيَّ أن أشـــغلها ... منظـــرٌ عـــن حُســـن هـــذا المنظـــرِ
ألشـــيءٍ غيـــر أن تؤنســـني ... تظهـــرُ الأرضُ بهـــذا المظهـــرِ
لســـتُ بالشـــاعر إنَّ لـــم يُصـــبني ... أينمـــا كـــان، جمـــال الصـــورِ
في الثرى، وفي الروض، في أفق السما ... فـــي شـــآبيب الحيـــا، فـــي الحجـــر
وأشـــكري يـــا أرض الطـــاق السّـــما ... تســـلَبُ النعمـــةُ إنَّ لـــم تشـــكري
واذكـــري الشـــدةَ فـــي فرحتهـــا ... وأعرفـــي حُســـنَ صـــنيع المطـــرِ

تبدأ القصيدة بالمكان المخصوص (الأرياف) ومن ثمَّ تتوالى الدوال الدالة عليه مكانياً مثل (بساط الورد، الأقطار، الزهر، البقعة، بساط أخضر، الأرض، الثرى، الروض، الحجر)، وكذلك حضور ملزومات المكان أو الدوال التي تحيل على جمال المكان مثل (المطر، الأصيل، النسمة، السحر، النفحة، الآفاق، المنظر، الصور، أفق السما، شآبيب الحيا).

يتكئ النص على الصورة البصرية في تحديد الملامح المكانية للموصوف، إذ ينفتح النص بحالة شعورية مفرحة عبر الخبر المقدم المؤلف من الدوال المركبة (بهجة القلب) التي غدت نتيجة حتمية لـ (جلاء البصر) في أرياف إيران، ومن هذه البهجة التي احتواها قلب الشاعر اتسعت رؤيته لوصف تلك الطبيعة الغنّاء، حيث الانتقال من العام (الأرياف) إلى الجزئي وهي تفاصيل تلك الأماكن، وهذا الانتقال بين العام والجزئي تولَّد عبر حضور صيغة النداء الموجّه تارة نحو الطبيعة نفسها (يا أصيلا) بكونه علة الاعجاب بمناظر الطبيعة وكذلك أدّى إلى فتح فضاء النص على الذكرى

(هاجت الذكرى به)، وكان في الوقت نفسه مفتتحاً لتجلي الشعور والاحساس الرهيف بتلك الصور، وهذا ما دعى الشاعر لأن يحضر صيغة النداء مرة ثانية ولكنها في هذه المرة موجهة نحو (خليليه) (يا خليليَّ) وما يتبع ذلك من حضور صيغة فعل الأمر (أجيلا) لتركّز مظاهر جمال تلك الأماكن في نفس الشاعر ليمتلئ النص بعد هذا النداء بحركة فعلية تحيل على المكان وترسم تعلق الشاعر (تريا، به تكتسي، عميت، أشغلها، تؤنسني، تظهر، يصبني).

وبحركة نداء أخيرة يختتم النص ولكن النداء في هذه الحال موجه نحو مركز هذا الجمال (الأرض) في رجاء دوامه ، حيث تتقدم صيغة الأمر المقترنة بـ (ياء) المخاطب نحو هذه (الأرض) ضمت آلية التشخيص التي أنزلت غير العاقل (الأرض) بمنزلة العاقل ضمن متوالية منطقية تتأكد بثلاثة دوال بها تتركز نعمة الجمال وتدوم، أولها (الشكر) على ما أنعم الله تعالى على هذه الأرض وثانيهما (التذّكر) خوف زوال النعمة وثالثهما (الاعتراف) بحسن صنيع الخالق عبر وسيلة النماء (المطر).

وبهذا تفتح خاتمة المقطع على بدايته لتؤكد أجواء الجمال الطبيعي لهذه الأرياف التي مرَّ بها الشاعر، لأن المكان فيها يشكل البؤرة الدلالية التي تشع منها مسارات القصيدة ككل متكامل [21]، والتي على ضوئها تتشكل بنية التكوين التي تنطوي تحتها البنية الجمالية للنص الشعري.

4 – المكان المعادي:

تتشكل بنية المكان المعادي بحسب باشلار من مجموعة الصور التي تخلق مجموعة من الأفكار والأحاسيس التي تبتعد بالمبدع عن أجواء البيئة المحيطة وبخاصة المكان وما يتعلق به، حتى يصبح ذلك المكان على جماله محيطاً يستشعر المبدع فيه الغربة والحنين لما هو خارجه بحيث يحصل اغتراب عند المبدع يجد في تناسي هذا المكان سلوة له. وهو ما نلحظه في بعض شعر الجواهري حين يصف فيه (إيران) وجمال طبيعتها، وما هذا الاغتراب الحاصل عند الشاعر إلا لتمنيه أن يظم المكان الجميل أحبابه الذين فارقهم، وهو ما نجده في قوله [22]:

يكفـــيكم مـــن لـــوعتي أننـــي ... فـــي فـــارس أشـــتاق قطـــرَ العـــراق
لاســـوحها وهـــي جنـــانٌ زهـــت ... بكـــلِّ مـــا رقَّ جمـــالاً وراق
ولا الربـــى مخضـــرة تزدهـــي ... حســـناً حواشـــيها اللطـــاف الرقـــاق
خطـــت علـــى أوســـاطها خضـــرةٌ ... ســـبحان مـــن قـــدر هـــذا النطـــاق
تنـــال مـــن شـــوقي وهـــل ســـلوةٌ ... لمـــن قضـــى اللـــه لـــه أن يُشـــاق

النص ينطلق من تحديد مكاني فيه يتجلى الصراع النفسي عند الشاعر (فارس/العراق) بمعنى آخر تتشكل إشكالية المنتمي/ اللامنتمي، على صعيد الدالين المشيرين نحو ذلك التحديد المكاني، إذ يحمل كل دال مكاني إشكالية الانتماء وعدمه وهو ما وضع الشاعر في صراع نفسي كبير حيال كل مكان منهما، ويتمثل ذلك عبر العلاقات المكانية والزمانية القائمة على اللغة بين الذات الواصفة (الشاعر) والحدث الموصوف [23].

فالنص ينطلق من تجسيد نفسي حاد شعر به تمثل في (لوعة) الشاعر وحنينه لأحبائه وبلده (العراق) غير أنه في حنينه هذا لا ينفك مأسوراً بجمال وروعة المكان الحال فيه (إيران) وعبر جدلية الانغلاق الانفتاح يتشكل النص الشعري، فالنص ينفتح في مؤاده الدلالي عبر الوظيفة النفسية على مكان قد بعد عنه الشاعر من حيث المسافة، بمعنى أن ذلك المكان (العراق) قد غاب عن عين الشاعر إلا أنه كان حاضراً في قلبه، وعبر هذا الانفتاح تولد انفتاح آخر ضمن البيئة الحاضرة أو المكان المعادي (إيران) غير أن هذا المكان ولّد حضوراً واضحاً عند الشاعر بصورة إيجابية تولدت عنه ألفة عكست إعجاب الشاعر به على الرغم من انشطار ذاته بين المكانين، ومما أكد حضور المكان الثاني (إيران) عند الشاعر الوصف المتراكم لمظاهر الطبيعة الجميلة لبلاد (فارس)، هو حضور أداة النفي (لا) وما يتبعها من وصف دقيق لمظاهر الجمال في الطبيعة وما هو إلا دليل على مدى إعجاب الشاعر بها، ومن تداعيات هذا الجمال استوجب عند الشاعر استذكار الوطن والأهل، وهذا في الوقت نفسه خلق

انغلاق على مستوى الوظيفة النفسية التي يؤديها النص التي عاناها الشاعر على حيز المكان (فارس) وهو ما أكده حضور أداة النفي (لا) في النص الشعري المار الذكر.

إذ أن عزف الجواهري أو غيره من الأدباء على وتر المكان في النص الشعري يوضح ((الحالة الفكرية والنفسية على المحيط الذي يوجدون فيه بجعل المكان دلالة تفوق دور المألوف كديكور أو كوسيط يؤطر الأحداث))[24]. وهذا ما وجدناه عند الجواهري حين عرض معاناته واغترابه.

ومن صور المكان المعادي في النص الشعري عند الجواهري قوله [25]:

وانـــي علـــى أنَّ الـــبلاد جميلـــةٌ ... تـروق كمـا ازدادت مـن الـدلِّ مكسـالُ
منعمـــــة أمـــــا هواهـــــا فطيَّـــبٌ ... نســيم وأمــا المــاءُ فيهــا فسلســالُ
يســيل علــى أجبالهــا وهــو لجــةٌ ... ويجـري علـى حصـبائها وهـو أوشـالُ
تحـيط بــه خضــر الريــاض أنيقــةٌ ... كمـا رقمـت فـوق الصـحائف أشـكالُ
أحــنّ إلـــى أرض العـــراق ويعتلـــي ... فـــؤادي خفـــوقٌ مثلمـــا يخفـــق الآلُ
ومـا الهـول غشيان الدروب وضيقُها ... عـراكُ الهـوى والوجـد والـذكر أهـوالُ

النص جزء من قصيدة بعنوان (بين قطرين) إذ يسهم العنوان في خلق تقابل على الحيز المكاني يوضح الاختلاف الكائن بين المكانين على صعيد الوظيفة النفسية التي تؤديها عتبة النص [26]، الأول منها هو العالم الخارجي المنغلق الذي مثلته طبيعة (إيران) بجمالها الأخّاذ وهو ما نلحظه في الاسهاب في وصف هذا الجمال، بحيث تتجسد عاطفة الشاعر في دقة الوصف والاهتمام بنقل الجزئيات ضمن صور شعرية متدفقة متلاحقة معتمداً فيها الشاعر على عنصر التشبيه في رسم تلك الصور كما هو الحال مع البيت الأول من النص، ثم يتكئ لتأكيد هذا الاعجاب بمظاهر الطبيعة في (إيران) على استعمال أداة التفصيل (أمّا) التي أفادت نقل صور جزئية ضمن إطار الصورة الشعرية العامة التي تعكس مدى اهتمام الشاعر بذلك الجمال، ومع كل هذا الانجذاب نحو هذه الطبيعة نلحظ أن هذا الحيز المكاني كان حيزاً طارداً ومغلقاً لكنه ينفتح على حيز آخر ألحَّ على عاطفة الشاعر فأصبح مسيطراً عليه لتعلق

الشاعر به وهو (أرض العراق) لما يحتويه هذا الحيز المكاني من أحباب تمنى الشاعر لقاءهم والاجتماع بهم وهو ما مثله الجانب الآخر من التقابل المكاني المتقدم ذكره.

ويطالعنا الجواهري في قصيدة اخرى أتهم بسببها وأثيرت حولها ضجة كبيرة وقد كانت بعنوان (يريد الغرابة) وفيها يتحول المكان الذي لطالما كان يحن إليه الجواهري (العراق) إلى مكان طارد منغلق بسبب انجذاب الشاعر إلى مكان آخر أحبه وعشق جماله (إيران) وفيها يقول [27]:

لي في العراق عصابة لاولاهمُ ... ما كان محبوباً إليّ عراقُ
لا دجلة لولاهم، وهي التي ... عذبتُ، تروق ولا الفرات يذاق
"شمران" تعجبني، وزهرة روضها ... وهواؤها، ونميرها الرقراقُ
متكسراً بين الصخور تمدّه ... فوق الجبال من الثلوج طباق
وعليه من ورق الغصونِ سرادقٌ ... ممدودةٌ ومن الظلالِ رواق
وفي كل غصنٍ للبلابل ندوةٌ ... وبكل عود للغنا "إسحاق"
كانت منايَ فلم تعقْ وعجيبةٌ ... أني أحب منىً فلا تعتاق
سرُّ الحياة نجاح آمال الفتى ... أمّا الممات فسرُّه الإخفاق

النص ينطلق من تحديد مكاني (العراق) ومنه ينفتح النص على حيز مكاني آخر حضر فيه التقابل كعنصر دلالي ولغوي، إذ جعل الشاعر (العراق/ شمران) ضمن بنية تقابلية عكست الوظيفة النفسية للنص، فأصبح المكان الأول (العراق) مكاناً طارداً ينفر الشاعر منه مع ما فيه من مواطن الجمال والحياة (دجلة، الفرات) وليصبح مكاناً منغلقاً لا يوحي بتلك الحياة التي وفرها له نهراه، فكان هذا التحديد المكاني (عراق، دجلة، الفرات) يحمل صفات الكره عند الشاعر بدلالة عجز البيت الأول (ما كان محبوباً إليّ عراق) فكانت هذه التحديدات المكانية بمثابة قناع لمرور أفكار وعواطف الشاعر، وبهذا يتحول هذا المكان رمزاً بجفاء للشاعر والعكس صحيح، لأن ترميز الأمكنة ينتج حرية أكبر للمبدع بالتحرك وامتصاص العالم المعيش وإنتاجه فنياً [28].

وعبر هذا الانغلاق الذي يشعر به الشاعر حيال المكان الأول تنفتح له آفاق جمال المكان الثاني (شمران) وهذا واضح عبر التفصيل بذكر صفات هذا الحيز الجديد والاعتناء بعرض مفصل لكل جزئياته من رسم الصور الطبيعية عبر تقنية (الفلاش) حيث يلتقط الشاعر لقطات لهذه الطبيعة (زهرة روضها، هواؤها، نميرها، ورق الغصون) لينفتح النص على الماضي عبر التناص القائم على استجلاب بعض شخصيات الماضي وهو (إسحاق الموصلي) ذلك المغني العباسي لتكتمل به صورة البلابل المجتمعة للغناء (وفي كل غصن للبلابل ندوة). لينغلق النص في نهاية المطاف على صورة حكمية ترسم إرادة الحياة وتحدي الصعاب الذي هو (سر الحياة).

الخاتمة :

1- ضرورة دراسة أثر البيئة في الشعر الشاعر قديماً وحديثاً، بحيث يمكن دراسة عملية التأثير والتأثر المنطلقة من البيئة ومدى انعكاس ذلك وتجلياتها في الشعر.

2- شكل المكان كبيئة له تحولاته عند الجواهري ، فكان مكاناً يحمل بين طياته النقيضين المنتمي/ اللامنتمي.

3- استجلبت الألفة وعدم الألفة الانفتاح والانغلاق في النص الشعري ، فكان الانفتاح يعرج فيه الشاعر ضمن أخيلة عبرها صوراً شعرية اتسمت بالاعتناء بالجزيئات والتفاصيل التي عكست لوحات جمالية للطبيعة . أما الانغلاق فقد تشكل عبر إحجام الشاعر عن جمال الطبيعة وذلك بسبب حنينه لأهله ووطنه، وهو مع ذلك الحنين لا يفتأ يمجد بجمال الطبيعة.

4- كانت البيئة المكانية بطبيعتها الجمالية هي المسيطرة في حضورها داخل النص الشعري عند الجواهري، وقد يتسع ذلك لأن يمثل المكان بعداً رمزياً له دلالته بحسب طبيعة التوظيف .

الهوامش:

(1) جماليات المكان، غاستون باشلار، ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، 1984، ط2: 22.

(2) ينظر: شعرية المكان في الرواية الجديدة، الخطاب الروائي لإدوار الخراط إنموذجاً، خالد حسين، مؤسسة اليمامة الصحفية، الرياض، 1421هـ: 64.

(3) يُنظر: فن الشعر لأرسطو، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة– بيروت، 1975: 120.

(4) الحلقة النقدية، الأدب والتاريخ والهرمنيوطيقا الفلسفية ، ديفيد كوزنتر هوي، ترجمة: خالدة حامد، منشورات الجمل ، كولونيا– بغداد، 2007: 45.

(5) جماليات المكان، جماعة من الباحثين، الناشر عيون المقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء، ط2، 1988: 59.

(6) ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري، جمعه وحققه وأشرف على طبعه الدكتور إبراهيم السامرائي وآخرون، مطبعة الأديب البغدادية، العراق، 1973: 273/7.

(7) المَصدرُ نَفسُهُ : 319/3

(8) البروكسيميا أو علم المكان، إدوارد مال، مجلة العرب والفكر العالمي، ترجمة: بسام بركة، العدد (2) ، 1988، بيروت: 68.

(9) دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، محمد شوابكة، مجلة أبحاث اليرموك، مجلد (9) ، العدد (2) ، إربد، 1991: 17.

(10) ديوان الجواهري: 207/3.

(11) دلالة المكان في مدن الملح لعبد الرحمن منيف، محمد شوايكة: 23.

(12) قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، صلاح صالح، القاهرة، دار شرقيات، ط1، 1977: 135.

(13) ينظر: إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، بغداد: 5.

(14) علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي (مقاربة نقدية)، د. سمير الخليل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2008، 77.

(15) ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري، جمعه وحققه وأشرف على طبعه الدكتور إبراهيم السامرائي وآخرون، مطبعة الأديب البغدادية، العراق، 1973: 259– 260.

(16) ديوان الجواهري: 1/ 159– 160.

(17) المصدر نفسه: 1/ 160.

(18) المصدر نفسه: 260.

(19) المصدر نفسه.

(20) ديوان الجواهري: 1/ 353.

(21) ينظر: شعرية المكان، قراءات في الشعر العراقي الحديث، د. ستار عبد الله، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2013: 18.

(22) ديوان الجواهري: 1/ 256.

(23) ينظر: شعرية التأليف، بوريس أوسبنسكي، ترجمة سعيد الغانمي، د. ناصر حلاوي، المجلس الأعلى للثقافة، 1999: 94.

(24) بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د. حميد الحمداني، المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، ط1، 1991: 71.

(25) ديوان الجواهري: 1/ 266.

(26) المكان العتبة هو: ((المكان الانتقالي غير المستقر الذي لا يمثل سوى محطة عابرة للشخصية... بكلام آخر هو المكان المعبّر عن مواقف وأفكار غير مستقرة قلقة ما تزال في طور الصيرورة والتشكل. أفكار تعيش في زمن متأزم مشحون بالتوتر وطرح الأسئلة المصيرية)). ينظر: أدب المعراج عند ابن عربي، دراسة في البنية السردية، مها فاروق عبد القادر، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، رسالة ماجستير غير منشورة، 198: 176.

(27) ديوان الجواهري: 1/ 360.

(28) ينظر: ملامح الرمز في الغزل العربي القديم، دراسة في بنية النص ودلالاته الفنية، أ.د.حسن جبار شمسي، دار السياب، لندن ، ط1، 2008: 93.

المصادر :

1. أدب المعراج عند ابن عربي، دراسة في البنية السردية، مها فاروق عبد القادر، جامعة بغداد، كلية التربية للبنات، رسالة ماجستير غير منشورة، 1998 .
2. إشكالية المكان في النص الأدبي، ياسين النصير، بغداد، د. ت.
3. بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي، د. حميد الحمداني، المركز الثقافي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، ط1، 1991.

4. الحلقة النقدية، الأدب والتاريخ والهرمنيوطيقا الفلسفية ، ديفيد كوزنتر هوي، ترجمة: خالدة حامد، منشورات الجمل ، كولونيا– بغداد، 2007.
5. ديوان الجواهري، محمد مهدي الجواهري، جمعه وحققه وأشرف على طبعه الدكتور إبراهيم السامرائي وآخرون، مطبعة الأديب البغدادية، العراق، 1973.
6. شعرية التأليف، بوريس أوسبنسكي، ترجمة سعيد الغانمي، د. ناصر حلاوي، المجلس الأعلى للثقافة، 1999.
7. شعرية المكان، قراءات في الشعر العراقي الحديث، د. ستار عبد الله، دار تموز للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، 2013.
8. علاقات الحضور والغياب في شعرية النص الأدبي (مقاربة نقدية)، د.سمير الخليل، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط1، 2008.
9. فن الشعر لأرسطو، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة– بيروت، 1975.
10. ملامح الرمز في الغزل العربي القديم، دراسة في بنية النص ودلالاته الفنية، أ.د.حسن جبار شمسي، دار السياب، لندن ، ط1، 2008.

Abstract :

The Symbolic Formation of Place and its Role in Aljawahiry's Poetry Undoubtedly, place in modern literary studies is no longer the background within its frame the events of the text take place or just a reflection of the writer's self itself. However, it goes further to be a formative factor among the most constituing ingredients of the text itself in specific or the literary work in general. Accordingly, place becomes a pivot in which literature

theory is interested since it further contributes in forming the social entity and its cultural bases.

Hence, Aljawahiry's poetic text acquires variant symbolic dimensions not because it's mere a place, yet for the widespread symbolic meanings it holds which are begotten by the serious events of the place itself around which the poet and other people's positive and negative emotions are revolving. It extra formulates the collective understanding of the importance of place once it is violated. Consequently, place acquires its own value which influences all aesthetic and moral values that stir peoples.